ملامح حضارة العـرب في مجال العمران والهندسـة والتشييـــد في العصور الوسطى

Features of Arab civilization in the field of urbanism, engineering and construction in the Middle Ages

إعداد

د. يعرب نبهان

Dr. Yarab Nabhan

باحث وأكاديمي

Doi: 10.21608/jnal.2023.321372

استلام البحث ٢٠٢٣/ ٨ /٢٢

قبول النشر ٢٠٢٣/ ٩ /١١

نبهان، يعرب (٢٠٢٣). ملامح حضارة العرب في مجال العمران والهندسة والتشييد في العصور الوسطى. ***مجلة الناطقين بغير اللغة العربية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٦(١٩) أكتوبر، ٨٧ – ١١٤.

http://jnal.journals.ekb.eg

ملامح حضارة العرب في مجال العمران والهندسـة والتشييـد في العصور الوسطى

المستَخلص:

في العصور الوسطى، تألقت حضارة العرب في مجال العمران والهندسة والتشييد، حيث تركوا مستوىً عاليًا من الإرث الثقافي والتقني. كانت لهم ملامح فريدة تعكس تفوقهم وابتكاراتهم. وبدأت حضارة العرب في تطوير تقنيات البناء المتقدمة. قاموا بتصميم وبناء قصور وقلاع ومساجد مذهلة، مثل الأحمر والقصر الحمراء في الأندلس وقصر محمود الرشيد في بغداد. تميزت هذه المعالم بتفاصيلها الهندسية الرائعة واستخدام المواد المبتكرة مثل الزجاج الملون والفسيفساء. كما أسس العرب نظامًا معماريًا فريدًا، حيث أدمجوا بين الفنون الإسلامية والفنون المحلية الموجودة في المناطق التي توسعت إليها الإسلام. طوروا أنماطًا معمارية مثل العقود المغربية والآثار المعمارية العثمانية، مما أضفى على المباني الإسلامية سحرًا وجمالًا فريدين. تميزت حضارة العرب أيضًا بالتقدم في مجال التصميم الحضري وتخطيط المدن. أسسوا مدناً رائعة مثل القاهرة وبغداد وقرطبة، حيث صممت هذه المدن بعناية لتتوفر فيها جميع احتياجات السكان وتوفر بنية تحتية متطورة مثل الأسواق والمساجد والحمامات العامة. علاوة على ذلك، قام العرب بتطوير تقنيات الري والمياه، حيث طوّروا نظام القنوات المائية وتقنيات الري الحديثة. هذا ساعد في تحقيق الاستدامة الزراعية وتوفير المياه للمدن والمزارع في المناطق الجافة.

Abstract:

In the Middle Ages, the Arab civilization excelled in the field of architecture, engineering and construction, leaving a high level of cultural and technical legacy. They had unique features that reflected their superiority and innovation. The Arab civilization began to develop advanced building techniques. They designed and built stunning palaces, castles and mosques, such as the Al-Ahmar and Al-Hamra Palace in Andalusia and the Mahmoud Al-Rashid Palace in Baghdad. These monuments were distinguished by their exquisite geometric details and the use of innovative materials such as stained glass and mosaics. The Arabs also established a unique architectural system, integrating Islamic arts with local arts found in the regions to which Islam expanded. They developed architectural styles such as Moorish arches and Ottoman architectural monuments, giving Islamic buildings a unique charm and beauty.The Arab civilization was also characterized by advances in urban design and city planning. They founded wonderful cities such as Cairo,

Baghdad, and Cordoba. These cities were carefully designed to meet all the needs of the population and provide advanced infrastructure such as markets, mosques, and public baths. Moreover, the Arabs developed irrigation and water technologies, developing a system of water canals and modern irrigation techniques. This helped achieve agricultural sustainability and provide water to cities and farms in dry areas.

عرض أدبيات البحث:

إن من أهم العناصر التي تميز الحضارة العربية، هو اهتمام أصحابها بمسائل العمران والبناء والتشييد، وقد ظهر هذا الاهتمام الإيجابي منذ السنين الأولى من عمر الدولة العربية، فتجسد على أرض الواقع في بناء بضعة مدن في العراق، ثم انتشر تباعاً مع مرور الزمن فشمل معظم الرقعة، التي شملها حكم العرب في العصور الوسطى. وقد ترافقت عملية بناء المدن هنا وهناك بنشاطات عمرانية أخرى متفرقة من حيث كمها ونوعها، وكانت هذه العمليات في مجال هندسة استنباط واستجرار المياه وإقامة الخزانات المائية ذات النفع العام، وخاصة في الأماكن الجافة وشبه الجافة، التي تفتقر إلى عنصر الماء الضروري في الحياة العامة، وكذلك في مجال القصور والحدائق وأماكن النزهة. ففي مجال البناء وتشييد المدن، يمكن القول إنّ هذه المسألة بدأت في العصر الراشدي وبالتحديد في خلافة عمر بن الخطاب، الذي أمر ببناء مدينتين في العراق، وهما البصرة والكوفة اللتين بنيتا لتكونا أماكن استقرار للفاتحين العرب في المقام الأول، لكنهما تطورتا بسرعة لافتة لتشغلا دوراً حضارياً وعلمياً رائداً، فقد أصبحتا من المراكز الهامة للإشعاع العلمي في مختلف الميادين. وكانت البصرة هي أول المدن في تاريخ العمارة العربية، اختطت في سنة ١٤هـ/٦٣٥م، أشرف على بنائها أبو موسى الأشعري[١] وهي اليوم من أهم المدن في المنطقة الجنوبية من العراق قريباً من الكويت.

أما مدينة الكوفة فقد بنيت إلى الشمال من البصرة، اختطها وأشرف على بنائها سعد بن أبي وقاص، وقد انتهى بناؤها في سنة ١٧هـ/٦٣٨م. وتقع هذه المدينة بين الحيرة والفرات[٢]، وقد تمثلت في مدينة الكوفة روح الإسلام العظيمة، وهي روح التسامح بين الناس جميعاً دون تفريق بين فئة وأخرى. فقد سكنت في الكوفة مجموعة من السريان، ومجموعة من يهود نجران ومسيحييها، الذين كانوا قد تركوا نجران

[١] – الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. تاريخ الطبري، ٢٩٠ ، ص ١٨٩.
[٢] – كاظم الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة، طبعة بغداد، ١٩٦٧، ص ١١ وما بعدها. ياقوت الحموي، معجم البلدان مادة كوفة.

بأمر من عمر بن الخطاب، الذي حرص على تخفيف اليهود والمسيحيين من الجزيرة العربية، وقد سمي الحي الذي نزلوا به بالنجرانية[٣].

وفي العصر الأموي اهتم الخلفاء الأمويون بمسائل العمران اهتماماً كبيراً، وذلك لإظهار دولتهم بمظهر العظمة والقوة والأهمية، وكان لهم ذلك إلى حد كبيير، ساعدهم في هذا الأمر وجود مصادر تمويلية قادرة على الإنجاز في الوقت المناسب، فبنوا عدداً من المدن الهامة، مثل مدينة القيروان بالمغرب الأدنى (تونس)، التي بناها عقبة بن نافع الفهري لتكون مركزاً للفاتحين بالمغرب الكبير، وقد أنجز بناء هذه المدينة في سنة ٥٥هـ/٦٧٢م. وقد حرص عقبة أن تكون مدينته بعيدة عن البحر، حتى لا تهاجمها القوى البحرية البيزنطية، التي كانت مسيطرة على غرب البحر المتوسط، وحرص أن تكون قريبة من منطقة المراعي، وأن تكون غير متوغلة في الصحراء حتى لا تتعرض لهجمات القبائل البدوية الصحراوية[٤].

ومدينة واسط التي شيدت في منطقة متوسطة بين الكوفة والبصرة على نهر دجلة، أمر ببنائها والي العراق في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، الحجاج بن يوسف الثقفي[١] الذي بنى هذه المدينة سنة ٨٣هـ أو ٨٤هـ/٧٠٤م بحسب الروايات الموثوق بها[٢].

كان السبب الذي شجع الحجاج على بناء هذه المدينة سياسياً محضاً، يتعلق بالوضع العام الذي كان قائماً في مدينة البصرة والكوفة، وهو وضع كان متبايناً تماماً، فأراد الحجاج أن يتخلص من هذا الوضع قدر الإمكان، فبنى هذه المدينة واتخذها مقراً لولايته، وأصبحت مع الأيام أهم مدينة في العصر الأموي بالعراق، وتفوقت على جميع مدنه[٣].

أما المدينة الأخرى التي بنيت في هذا العصر، فهي مدينة الرملة بفلسطين التي أمر ببنائها سليمان بن عبد الملك، حينما كان ولياً لعهد أخيه الوليد بن عبد الملك، وهي أول مدينة عربية تبنى في هذا العصر بالشام في منطقة قريبة من مدينة مقدسة هي القدس الشريف، التي تبعد عنها الرملة مئة وخمسين كيلو متراً إلى الغرب.

بنيت هذه المدينة لأسباب تبدو غير واضحة تماماً، وما يمكن قوله في هذا الصدد، إن سليمان بن عبد الملك كان يريدها أن تكون مستقراً دائماً له، يمارس فيها أعماله الماجنة المتعددة بعيداً عن أنظار أخيه الوليد الذي أحب الإقامة بمدينة دمشق

---

[٣] – كاظم الجنابي، المرجع السابق، ص ٢٦. البلاذري، المصدر السابق، ج١، ص ٧٨.

[٤] – ياقوت الحموي، معجم البلدان مادة قيروان.

[١] – شغل منصب والي العراق من سنة ٦٦ حتى سنة ٩٥هـ .

[٢] – تاريخ اليعقوبي ٢٩٠، ص ٣٧٩. تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٨٣. ابن قتيبة، المعارف، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٥٦.

[٣] – بحشل، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧، ص ٢٢ وما بعدها.

العاصمة. سميت بالرملة نسبة إلى موقعها في منطقة كثيرة الرمال على شاطئ البحر المتوسط، وقد أصبح سليمان بن عبد الملك خليفة قبل أن تنتهي عملية بناء هذه المدينة، والدليل على ذلك أن مسجد المدينة بني في عصر عمر ابن عبد العزيز، الذي خلف سليمان بن عبد الملك في الحكم[٤].

وبالجملة فإن هذه المدن الثلاث، تشابهت إلى حد كبير في مخططها العام، ولعل أبرز وجوه التشابه هذا، أن كل مدينة منها سورت بأربعة أسوار في كل سور أربعة أبواب لدخول وخروج السكان، وكذلك وجود القصر الحكومي والمسجد والسوق التجاري المتعدد المهمات في وسط المدينة، ثم يأتي بعد ذلك أحياء المدينة ومرافقها العامة إن وجدت.

وفي العصر العباسي كانت ظاهرة العمران سياسية واجتماعية واقتصادية، أملتها ظروف التطور في كل الميادين العامة في هذا العصر، ولاسيما في مجال موضوع هذا البحث، لأن العباسيين كانوا يريدون أن يظهروا دولتهم بمظهر حضاري مرموق، كما كانوا يريدون أن تكون لهم عاصمة جديدة يشيدونها بأنفسهم وحسب رغباتهم في طبيعة وتكوين العاصمة.

بدأ العباسيون ببناء عاصمة لدولتهم، ووقع اختيارهم على موقع مدينة بغداد على نهر دجلة، وكان هذا الاختيار بعد عملية شاقة من البحث على موقع مناسب للعاصمة، قادها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين بنفسه، وقد أخذ بعين الاعتبار عدداً من المسائل الهامة الضرورية لاستمرار الحياة المنشودة، فموقع بغداد يتوسط العراق، وهو يقع على الطرق التجارية، الأمر الذي يجعل هذه المدينة محطة هامة على هذه الطرق، وبالتالي فإن عملية وصول التموين إليها تكون دوماً في دائرة الممكن، كذلك فإن هذا الموقع يتمتع بالحصانة والمنعة وطيب الهواء ونقائه[١].

حرص المنصور العباسي على أن تكون عاصمته الجديدة على شكل دائري، حتى يكون قصره الذي بناه في وسط المدينة متساوي الأبعاد بين كل أحيائها، وهو تطور جديد في هندسة المدن العربية في العصور الوسطى، قيل إنّ المنصور اقتبسه عن الفرس[١]. وقد استمرت عملية بناء مدينة بغداد من سنة ١٤٥هـ /٧٦٣م، إلى سنة ١٤٩هـ/٧٦٧م. واشترك في هذه العملية العديد من المهندسين وأصحاب العلم والمعرفة في ميدان البناء، كان منهم الإمام أبو حنيفة نفسه، إضافة إلى أكثر من مئة ألف من العمال والحرفيين على اختلاف تخصصاتهم وصنائعهم، وأُنفق على بناء هذه

---

[٤] – ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد ٣ مادة الرملة. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٩.

[١] – تاريخ الطبري، ج ٩، ص ٢٤٠. اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٦ وما بعدها. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٠.

[١] – الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠. تاريخ الطبري، ج ٩، ص ٢٤٠.

المدينة قرابة خمسة ملايين درهم، على الرغم من رخص الأجور وأسعار المواد في ذلك الوقت[٢].

أطلق على هذه المدينة عدة أسماء إضافة إلى اسم بغداد، مثل دار السلام، والزوراء لازورارها قليلاً عن القبلة، والروحاء لطيب هوائها ونقائه. وجعلوا لها أربعة أبواب رئيسية، باب خراسان باتجاه الشمال الشرقي، وباب الشام باتجاه الشمال الغربي، وباب البصرة باتجاه الجنوب الشرقي، وباب الكوفة باتجاه الجنوب الغربي. كما ضمت عدداً من القصور الفخمة، كان في مقدمتها قصر الخليفة المسمى بقصر الخضراء الذي يتوسط المدينة، وقد كان من أهم أحيائها، الكرخ والحربية. وقد أصبحت بغداد في عصر العباسيين حاضرة مزدهرة من حواضر العالم، عرفت كل صنوف العلم والمعرفة والفنون، وأعطت للحضارة الإنسانية ما لم تعطه حاضرة أخرى في عالم العصور الوسطى.

أما المدينة الثانية التي بنيت في العصر العباسي الأول، لأن تكون عاصمة للدولة العباسية بديلاً عن بغداد، فهي مدينة سامراء التي بناها الخليفة المعتصم في ارض مقفرة لا حياة فيها من قبل. وقد علل المؤرخون أن أسباباً قوية أثرت بالخليفة المعتصم، حتى لجأ إلى قراره ببناء عاصمة جديدة للدولة التي يحكمها، ومن هذه الأسباب يمكن أن نذكر أن مدينة بغداد في عصر المعتصم، لم تتسع لأعداد كبيرة من الجنود الأتراك، كان المعتصم قد جلبهم من آسيا الوسطى لخدمة مشاريعه العامة. وتقع سامراء إلى الشمال من بغداد بنحو مئة وثلاثين كيلومتراً. وقد بنيت هذه المدينة سنة ٢٢١هـ/٨٣٧م. وضمت العديد من القصور مثل قصر الخليفة، وقصر الجوسق، وقصر لؤلؤة، وقصر الهاروني، وشقت فيها بعض الشوارع العريضة مثل شارع الخليج وشارع الطويل[١].

وفي عصر المتوكل أُقيمت بعض القصور الجديدة، مثل قصر العروس، وقصر المختار، وقصر الوحيد، وقصر الجعفر، وقصر الغريب، وقصر البرج، وقصر الصبيح، وقصر المليح وغيرها ومع ذلك ترك المتوكل مدينة سامراء، وتوجه إلى دمشق كي يتخلص من ضغوط وسيطرة الأتراك، الذين اكتظت بهم سامراء[٢] لكنه اضطر للعودة لها بعد غياب استمر من سنة ٢٤٢هـ/٨٥٧م إلى سنة ٢٤٥هـ/٨٦٠م، وبقي فيها فترة وجيزة انتقل بعدها إلى مدينة المتوكلية التي أمر ببنائها ليقيم بها بدلاً من سامراء، وتقع هذه المدينة إلى الشمال من سامراء بنحو خمسة وعشرين كيلومتراً، وفيها قتله الأتراك[٣].

---

[٢] ـ الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج ١، ص ٨.

[١] ـ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٥ . المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩.

[٢] ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٥. ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٦.

[٣] ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة سامراء.

هذا وقد بنى العباسيون بعض المدن الأخرى بالمغرب الأدنى (تونس الحالية)، وقام بالإشراف على هذه المدن الأغالبة، الذين حكموا هذه المنطقة بتوجيه ومساندة العباسيين أنفسهم لكن هذه المدن لم تكن بحجم المدن، التي بناها العباسيون في العراق على الرغم من الحرية المطلقة، التي كان الأغالبة يتمتعون بها تحت المظلة العباسية. من هذه المدن مدينة العباسية، التي حملت هذا الاسم تيمناً بالعباسيين. وقد بنيت هذه المدينة إلى الجنوب من القيروان بنحو ثلاثة أميال أمر ببنائها إبراهيم بن الأغلب التميمي مؤسس دولة الأغالبة بتونس سنة ١٨٥هـ/٨٠١م[٤].

ومدينة رقادة التي أُقيمت على بُعد ثمانية أميال إلى الجنوب من مدينة القيروان، قام ببنائها إبراهيم بن أحمد الأغلبي سنة ٢٦٣هـ/٨٧٧م وانتهت في السنة التالية، ومنذ ذلك الحين أصبحت مقراً لأمراء بني الأغلب حتى زوال دولتهم. وقد ضمت قصوراً عديدة مثل قصر بغداد، وقصر المختار، وقصر الفتح، وقصر البحر، وقصر العروس، وقصر الصحن[١].

من جهة أخرى فقد بنيت في هذا العصر بعض المدن الصغيرة، لتأدية وظيفة معينة هي وظيفة الدفاع ضد الأعداء المتربصين، ومعظم هذه المدن بني في شمال العراق وشمال سورية، وهي ما عرفت بمناطق الثغور أي منطقة التماس المباشر مع البيزنطيين في العصور الوسطى، وقد كان بناء هذه المدن من أفضل الخطط الحربية الدفاعية، التي تبلورت فيها العقلية العربية في ذلك الوقت في ميدان مواجهة العدو في مناطق الثغور. وقد حرص الخلفاء العباسيون الذين بنوا هذه المدن، على توطين الآلاف من المرابطين والمثاغرين للقيام بعملية الدفاع وهذا ما أدى إلى عملية استقرار دائمة مع مرور الزمن، استمرت خلال العصور الوسطى ومازالت مستقرة حتى اليوم.

من هذه المدن مدينة مرعش والمصيصة، التي بناها المنصور العباسي في سنة ١٣٩هـ/٧٥٧م في منطقة الثغور، وشحن هاتين المدينتين بالمقاتلين والمتطوعة، الذين اختاروا لأنفسهم حياة الجهاد والرباط ضد البيزنطيين. وفي سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م بنى مدينة الرافقة على نهر الفرات، ورتب فيها الجند لتكون مركزاً لانطلاق الجيوش العربية إلى الجبهة البيزنطية في الشمال[٢].

وفي عصر الخليفة هارون الرشيد بنيت منطقة العواصم، وهي منطقة ثغرية مستحدثة ضمت قسماً كبيراً من أرض قنسرين والجزيرة، وجعلها الرشيد مستقلة عن بقية الثغور، وجعل عاصمتها مدينة منبج بالقرب من مدينة حلب في شمال سورية

---

[٤] – ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج ١، ص ١١٧. اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٤٨.

[١] – ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة رقادة.

[٢] – البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٨ و ١٩٥ و ١٩٦و ١٩٧.

اليوم، وزودوها بقوات عسكرية مثاغرة خاصة بها[١]. وبنى الرشيد أيضاً. وبنى الرشيد أيضاً مدينة عين زربة وزودها بالمرابطين، ومدينة الهارونية وجعلها ثغراً للرباط[٢].

وفي تونس بنى الأغالبة رباطاً سموه رباط (المنستير) الذي تطور مع مرور الأيام، إلى أن أصبح مدينة تونسية هامة في تونس اليوم. قام ببناء هذا الرباط القائد العسكري العباسي هرثمة بن أعين في سنة ١٨٠هـ/٧٩٧م. وفي مصر بنى الفاطميون مدينة القاهرة في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، أطلقوا عليها اسم القاهرة المعزية نسبة للخليفة المعز لدين الله الفاطمي، التي بنيت في عصره. وكانت القاهرة وقت الانتهاء من بنائها، تمتد من جامع الحاكم إلى باب زويلة، وحدودها في الشرق هي حدود القاهرة الحالية، أما في الغرب فلم تتجاوز خليج أمير المؤمنين. وبصورة عامة فقد كان يحدها في زمن بنائها، باب النصر في الشمال، وباب زويلة في الجنوب، وباب البرقية، والباب المحروق (الدراسة الآن) في الشرق، وباب السعادة وباب الفتوح وباب الخوخة في الغرب. وكانت أهم أحيائها في العصر الفاطمي، حي الجامع الأزهر، والجمالية، وباب الشعرية، والموسكي، والغورية، وباب الحلق[٣].

حرص الفاطميون على إقامة الأسوار حول عاصمتهم جرياً على ما كان معروفاً في هندسة المدن في العصور الوسطى، وأصبح الجزء المحاط بالأسوار يسمى القاهرة، أما الجزء الذي كان خارج الأسوار فكان يسمى ظاهر القاهرة، وقد تجسد هذا الجزء على أرض الواقع في الأرض الممتدة بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل، وهي الأحياء المعروفة اليوم بأحياء شبرا والحسينية وباب اللوق وبولاق.

أما في الجناح الغربي من ديار العرب والإسلام أي في المغرب الكبير والأندلس، فقد بني العديد من المدن على غرار ما حدث في الجناح الشرقي. ففي المغرب الكبير نرى بوضوح، أن معظم المدن التي أقيمت أصبحت عواصم لدول معينة طوال حياة هذه الدول. ففي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، قام الخوارج الإباضية ببناء مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط لتكون عاصمة لدولتهم التي اشتهرت بالدولة الإباضية أحياناً وبالدولة الرستمية أحياناً أخرى، وقد بنيت هذه المدينة في سنة ١٦٠هـ/٧٧٧م في موقع حصين إلى حد كبير، هو سفح جبل غزول الجنوبي الذي يرتفع عن سطح البحر نحواً من (١١٠٠)م، وهذا الموقع عبارة عن غيضة تتوسط ثلاثة أنهار، مما جعل الحياة في هذا الموقع مستمرة حتى اليوم في موقع تياريت الحديثة، التي هي استمرار لتاهرت القديمة[١].

---

[١] ـ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٦، ص ١٠٨.
[٢] ـ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٦ ، ١٥٣.
[٣] ـ المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٢٧٣.
[١] ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة تاهرت.

وفي المغرب الأقصى (المملكة المغربية) بنيت مدينة فاس، لتكون عاصمة لدولة الأدارسة، اشترك في بنائها إدريس الأول وإدريس الثاني في نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي على ضفتي وادي سبو، وقد بنيت في قسمين، الأول على الضفة اليمنى ويعرف بحي الأندلسيين[٢] والثاني في مقابله على الضفة الأخرى، وسمي بعدوة القرويين أو القيروانيين في البداية ثم تغير إلى اسم العالية تيمناً بالإمام علي بن أبي طالب[٣]، وقد تم بناء مدينة فاس في سنة ١٩٣هـ /٨٠٩م. هذا وكتب لهذه المدينة أن تعيش حالة تألق وازدهار شبه مستمرة حتى اليوم بعكس العديد من المدن المغربية الأخرى، ويرجع ذلك إلى أن هذه المدينة أقيمت في سهل خصيب هو سهل (سايس)، وهي تقع في نهاية أهم ممر في المغرب الكبير وهو ممر تازا الاستراتيجي.

وحينما سيطر الفاطميون على المغرب الكبير، أسقطوا كل الدول المستقلة فيه، وأعلنوه دولة واحدة تحت رايتهم، وظلوا أمداً من الوقت في رقادة عاصمة الأغالبة، ثم بنوا مدينة بديلة لتكون عاصمة لدولتهم، هي مدينة المهدية على الساحل الشرقي التونسي، وبقيت عاصمتهم حتى انتقلوا إلى مصر وبنوا مدينة القاهرة. كذلك فإن المرابطين الذين جاؤوا بعد الفاطميين، بنوا عاصمة لهم هي مدينة مراكش إلى الشمال الغربي من أغمات بالمغرب الأقصى، التي بناها يوسف ابن تاشفين المرابطي الذي يعد المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية وستبقى مراكش التي أنجزت عملية بنائها في سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٣م عاصمة للدولة المرابطية طوال حياتها وللدولة الموحدية إلى حين من الزمن[١] حينما بنوا لدولتهم مدينة جديدة هي مدينة الرباط بالمغرب الأقصى أيضاً، التي شرع في بنائها في عصر عبد المؤمن ابن علي، واستمر ذلك في عصر يوسف بن عبد المؤمن ويعقوب المنصور، وقد بنيت في منطقة سهلية قريبة من المحيط الأطلسي، وهي المنطقة المحصورة بين نهري بورقرق وأم الربيع. ولم يكن بناء هذه المدينة من أجل أن تكون عاصمة للموحدين، بل كان في المقام الأول من أجل أن تكون مركزاً لحشد القوات المتوجهة إلى الأندلس[٢].

أما في الأندلس فكان الأمر مختلفاً عن كل المناطق التي ذكرناها حتى الآن، لأن الأندلس لم تكن بحاجة لبناء مدن جديدة حينما دخلها العرب في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، لذلك نرى أن العرب هناك سيبقون أكثر من مئة سنة دون أن يتحركوا في هذا الاتجاه لأن المدن التي كانت قائمة بالأندلس كانت كافية لاستيعاب كل الأنشطة العربية، لكن الأمر تغير منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع

---

[٢] – سمي هذا الحي كذلك بعد أن وصلت إليه مجموعة من سكان ربض قرطبة الجنوبي، الذي نكبه الأمير الأموي الحكم بن هشام سنة ٢٠٢هـ.

[٣] – ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١ وما بعدها.

[١] – ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣. مؤرخ مجهول، الحلل الموشيه، ص ١١.

[٢] – الحميري، الروض المعطار، ص ٣١٨ – ٣١٩.

الميلادي بسبب تأثير بعض العوامل التي تتعلق بالتطور العام في تلك الفترة من الزمن والتي يمكن أن نحددها بعوامل عسكرية وعوامل اجتماعية وأخرى اقتصادية بحتة وكذلك سياسية. بدأ ظهور المدن التي بناها العرب بالأندلس في عصر الإمارة الأموية، فبنيت ثلاث مدن هي مجريط (مدريد) ومرسية وطلمنكة.

فمدينة مدريد بنيت في الأساس لتؤدي وظيفة عسكرية بحتة، من خلال موقعها المتقدم باتجاه شمال شرق وشمال إسبانيا، فهي قريبة من الثغرين الأوسط والأعلى.

وكانت أهميتها العسكرية بالغة، لأنها شكلت إلى فترة زمنية طويلة قاعدة حشد عسكرية للجيوش العربية، التي كانت تنفذ عمليات عسكرية في شمال وشمال غرب إسبانيا، حيث تجمعت نواة المقاومة الإسبانية ضد الوجود العربي. كانت مدينة مدريد في بداية أمرها حصناً كبقية الحصون المجاورة لها، لكن سرعان ما تطور هذا الحصن حتى أصبح مدينة هامة كما يؤكد معظم الجغرافيين العرب. وكان اسمها القديم (مجريط) وقد بنيت هذه المدينة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في عصر الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن[١].

ومع مرور الأيام تحولت مدينة مجريط (مدريد) إلى مدينة كبيرة وأخذت تتحول من ثغر عسكري إلى مدينة آهلة بكل أنواع السكان، من تجار وحرفيين وعلماء وغير ذلك. وشهدت حركة اقتصادية نشيطة وخاصة في مجال التجارة والصناعة، ودليل ذلك أن شوارعها القديمة مازالت تحمل حتى اليوم أسماء أصحاب الصناعات المختلفة، ولاسيما الصناعات الحربية[٢].

ولمدينة مدريد العربية ماضٍ تليد فيه ذكريات طيبة، تعكس بشكل خاص عظمة هذه المدينة وأهميتها في فترة الازدهار العربي. من ذلك أنها كانت في عصر محمد بن أبي عامر، الذي حكم الأندلس معظم سني النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، كانت من أهم الثغور وأحبها إلى قلبه[١].

المدينة الثانية التي بنيت في عصر الإمارة، كانت مدينة مرسية بشرق الأندلس، وقد بنيت قبل مدريد، ومع ذلك فقد تحدثنا عن مدريد في البداية منطلقين في ذلك من أهمية هذه المدينة في الماضي والحاضر. فقد بنيت مدينة مرسية في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط[٢] وكان بناؤها على أنقاض مدينة قديمة هي مدينة تدمير، التي كانت من نصيب المصريين، حينما قام أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي

---

[١]– F.W.Robins, The Story of Water Supply, Oxford, University Press, 1946, pp.116-118.

[٢] – محمود علي مكي، مدريد العربية، طبعة مصر، وزارة الثقافة، ص ٧٤.

[١] – ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٥.

[٢] – حكم هذا الأمير من سنة ٢٠٦ حتى سنة ٢٣٨هـ .

بتوزيع أجناد الأندلس على الأقاليم والمدن الأندلسية، التي تتناسب مع بيئة هذه الأجناد قبل انتقالها إلى الأندلس.

وقصة بناء هذه المدينة، أن فتنة قوية اشتعلت على أساس قبلي عصبي بين القيسية واليمنية بتدمير في عصر عبد الرحمن الأوسط، واستمرت هذه الفتنة من سنة ٢٠٧-٢٠١٣هـ/٨٢٣-٨٢٩م، ولم تهدأ حتى قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بإعطاء أوامره بهدم مدينة تدمير، وبناء مدينة جديدة هي مدينة مرسية، التي مازالت قائمة حتى اليوم بشرق إسبانيا[٣]، وقد تم بناء هذه المدينة في سنة ٢١٦هـ/٨٣١م.

أما في عصر الخلافة الأموية بالأندلس فقد بنيت عدة مدن ملكية وعسكرية وتجارية، اندثر بعضها ومازال بعضها الآخر يعج بكل ألوان الحياة في إسبانيا. من أهم هذه المدن مدينة الزهراء، التي بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله، الذي كان في عصره من أعظم ملوك الدنيا، الأمر الذي جعله ينزع إلى تحقيق شيء على الأرض يعكس هذه العظمة، فأمر ببناء مدينة الزهراء لتكون دار الخلافة الجديدة التي أعلنها بالأندلس.

بنيت مدينة الزهراء إلى الشمال من مدينة قرطبة في السفح الجنوبي لجبل عروس، على هيئة مستطيل طوله ١٥٠٠م وعرضه ٧٥٠م، وعلى ثلاثة مسطحات متدرجة في الارتفاع. وتبعد عن قرطبة نحواً من خمسة أميال، يجري بينهما نهر الوادي الكبير، الذي تقوم الزهراء على ضفته[١]. وقد احتوت على أبنية وقصور للخليفة والوزراء والنساء على هيئة ما كان بقرطبة.

اشتهرت مدينة الزهراء إضافة لما تقدم، بأنها احتوت على حديقة للحيوانات، ربما كانت الأولى من نوعها في تاريخ العصور الوسطى. كما اشتهرت بخزانتها العلمية التي أسسها الخليفة المتنور الحكم المستنصر، التي وصفت على أنها من أعظم خزانات الكتب في العالم آنذاك، فقد احتوت على ٤٤ فهرسة ٢٠ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط[٢].

استمرت عملية البناء مدة طويلة من الزمن، دامت أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وقدرت النفقة عليها بثلاثمئة ألف دينار في كل عام، أي أن هذه النفقة بلغت في عصر الناصر لدين الله سبعة ملايين دينار ونصف المليون[٣].

---

[٣] – الحميري، المصدر السابق، ص ١٨١. ابن عذاري، المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٤ وما بعدها.

[١] – ابن عربي، محاضرة الأبرار، ج ١، طبعة دار السعادة بالقاهرة، ١٣٢٤هـ، ص ١٤٩. المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٥٢٣.

[٢] – ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج ١، ص ٢٧٦. ابن عذاري، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٣.
- النباهي، المرقبة العليا، ص ٧٩ وما بعدها.

[٣] – المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٥٦٤. ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦.

ومنذ تسعين عاماً مضت، كانت مدينة الزهراء مازالت مندرسة بعد ذلك الذي حصل لها من تدمير في الفتنة، فبدأت الحكومة الإسبانية مشروعاً للبحث والتنقيب عن موقع هذه المدينة معتمدة على ما جاء بشأنها من أوصاف دقيقة في مؤلفات العلماء العرب، وخاصة عند الإدريسي الجغرافي. وقد تمكن المنقبون بقيادة المهندس الإسباني (بلاسكث بوسكو) من اكتشاف بعض أسوار وأعمدة وجدران تتعلق بالمدينة أو القصور الملكية، التي كانت قد أقيمت فيها، هذا بالإضافة إلى العديد من الأواني الخزفية وبعض الزخارف وقطع الرخام[١]، وتعد الآثار المكتشفة من هذه المدينة على قلتها عامل جذب كبير لمجموعات سياحية ضخمة، تعول الحكومة الإسبانية على الاعتماد عليها هي وغيرها كمصدر هام من مصادر الدخل القومي الإسباني.

كذلك فقد أمر الخليفة الناصر لدين الله ببناء مدينة عسكرية هامة، هي مدينة سالم من أجل أن تكون قاعدة دفاعية في مواجهة دولة قشتالة الإسبانية، التي كانت تتطور بسرعة فائقة نحو تشكيل جبهة قوية من الإسبان، من أجل التخلص من الوجود العربي بشبه الجزيرة الإيبرية. وتقع مدينة سالم إلى الشمال من مدينة مدريد بنحو ١٥٣ كم على الطريق المؤدي من مدريد إلى سرقسطة في شمال شرق إسبانيا وكانت هذه المدينة في العصر الروماني معروفة باسم أوسيليس. وحينما دخل العرب الأندلس تحول اسم هذه المدينة وتغير، وحمل اسم رجل مغربي قام بتطوير عمارة هذه المدينة، وهذا الرجل كما ذكرت مصادر الأندلس سالم بن ورعمال المصمودي، المعروف أيضاً باسم القائد سالم. ولكن هذه المدينة المثاغرة، تخربت وتهدمت معظم أحيائها في عصر الأمير الأموي عبد الله، الذي حكم الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

وفي عصر الناصر لدين الله رممت هذه المدينة، وأصبحت من أهم مناطق الحشد والرباط والمثاغرة بالأندلس ضد قشتالة الإسبانية[٢].

ومن المدن التي بناها الناصر لدين الله أيضاً، مدينة المرية على الساحل الجنوبي للأندلس بالقرب من غرناطة. وكان بناء هذه المدينة دليلاً ساطعاً على ازدهار الاقتصاد العربي بالأندلس في عصر الخلافة الأموية وخاصة التجارة التي أصبحت المرية بتأثيرها من أهم الموانئ الأوروبية على شاطئ البحر المتوسط في مجال التصدير والاستيراد. وقد بنيت في سنة ٣٤٤هـ/٩٥٦م[١].

كانت مدينة الزاهرة آخر مدينة أنشئت في عصر الخلافة الأموية بالأندلس. أمر ببنائها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر بتأثير عقدة النقص عنده، وكذلك

---

[١] ــ أحمد مختار العبادي، في التاريخ الأندلسي والمغربي، ص ٢٠٥.
[٢] ــ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٦٦.
[١] ــ الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، طبعة ليدن، ١٨٦٤، ص ١٩٢.

بتأثير حب الظهور والمفاخرة والتشبه بالآخرين ولاسيما الخلفاء الأمويون. تقع هذه المدينة إلى الشرق من مدينة قرطبة بنحو ستة كيلومترات، لتكون قاعدة لحكمه تقيه من شر المعارضة، التي كانت تقلقه على الدوام إلى درجة أنه عاش ومات وهو يعاني من هاجس هذه المعارضة، لأنه كان يشعر بعدم شرعية حكمه على الإطلاق، لأنه لم يكن من أصل أموي. استمر بناء هذه المدينة نحواً من ثلاث سنوات انتهت في سنة ٣٧٠هـ/٩٨١م. وقد ضمت قصر الحكم وقصور الوزراء والعديد من المنشآت والمرافق على غرار ما كان بمدينة الزهراء. وقد أقام فيها المنصور محمد بن أبي عامر طوال فترة حكمه، وكذلك ابنه عبد الملك وابنه عبد الرحمن شنجول حتى أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ولكنها لم تلغ دور العاصمة الأولى قرطبة، وبقيت كما بقيت الزهراء من قبلها عبارة عن قصر كبير للحكم في ضاحية قرطبة الشرقية[٢].

وقد دمرت هذه المدينة في الفتنة الكبرى بالأندلس، التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس. ويبدو أن التدمير كان كبيراً وشاملاً، مما جعل المنقبين الآثاريين يقفون عاجزين عن تحديد حدود هذه المدينة على الأقل.

كانت المساجد الفرع العمراني الثاني، الذي لقي اهتماماً لافتاً من قبل العرب بعد بناء المدن. وسنقتصر هنا على ذكر المساجد الكبيرة التي مازالت شاهداً متألقاً على حضارة معمارية راقية، أنجزها العرب في وقت كانت فيه الغالبية العظمى من شعوب العالم قاصرة على صنع إنجاز مماثل. لعل أهم المساجد التي أنجزها العرب، تلك التي بنيت في العصر الأموي والتي تميزت بدقة هندستها وفخامتها ولاسيما المسجد الأموي بدمشق، الذي حظي باهتمام بالغ من رجال الدولة، وخاصة الخليفة الوليد بن عبد الملك[١]. فقد جاء هذا المسجد مفخرة من مفاخر الأمويين في مجال هندسة العمارة، لأنه جاء تحفة فنية معمارية غاية في الدقة والإتقان والفخامة.

اختار موقعه الوليد بن عبد الملك في منطقة تتوسط مدينة دمشق القديمة في مكان كان معبداً وثنياً قديماً، تحول في أواخر القرن الرابع الميلادي إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي كانت تشغل القسم الغربي من المعبد القديم، وحينما فتحت دمشق اتفق المسلمون مع المسيحيين على قسمة المعبد القديم، فأقام المسلمون مسجد الصحابة في الجزء الشرقي من المعبد، وبقيت الكنيسة في الجزء الغربي[٢].

حينما قرر الوليد بن عبد الملك بناء مسجده، دخل في مفاوضات مع المسيحيين حول الجزء الغربي من المعبد، حيث أقيمت كنيسة يوحنا المعمدان سابقة الذكر. وقد نجحت هذه المفاوضات بعد أن وعد المسيحيين بأربع كنائس كتعويض عن

---

[٢] – الحميري، المصدر السابق، ص ٥٦ وما بعدها. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٠ وما بعدها.

[١] – كانت خلافته من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦هـ.

[٢] – زكي محمد حسن، فنون الإسلام، طبعة بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨١، ص ٤٠.

كنيسة يوحنا المعمدان. وهكذا بدأ مشروع بناء المسجد الأموي، الذي كلف الكثير من المال والجهد لأن مواده جلبت من الخارج، مثل الخشب والفسيفساء وبقية التزيينات[٣]، وقد كانت الخبرة الهندسية المحلية هي المعول عليها في إشادة هذا المسجد، على الرغم من وجود أقوال تذكر، أن خبرة خارجية كبيرة ساهمت في عملية البناء وبخاصة الخبرة الفارسية والبيزنطية[١].

لم يكن حجم المسجد الأموي كبيراً لأسباب لا نعرفها تماماً، وما نستطيع أن نقوله حول ذلك هو أن المتوفر من الأرض لم يكن يسمح بمساحة أكثر من مساحة المسجد الحالية التي هي عبارة عن مستطيل طول ضلعه ١٥٦م وعرضه ٩٧م، يحتوي على صحن كبير في الجهة الشمالية وعلى مصلى يشغل الحيز الجنوبي من المسجد. وله ثلاثة أبواب رئيسة هي الباب الغربي والشرقي والشمال، وهناك باب ثانوي في الزاوية الجنوبية الغربية من الجدار الجنوبي. ويحتوي المصلى في الجنوب على ثلاثة أروقة محمولة على عدد من الأعمدة، وفيه عدد من القباب أهمها قبة النسر.

وقد دامت عملية بناء هذا المسجد عشرة سنوات وهي فترة خلافة الوليد بن عبد الملك الذي توفي دون أن يصلي بهذا المسجد[٢]. أما المسجد الثاني الذي حظي باهتمام الوليد بن عبد الملك هو المسجد النبوي بالمدينة المنورة الذي ترافق بناؤه من جديد بعملية بناء المسجد الأموي بدمشق، وقد اقتصرت عملية البناء في هذا المسجد على إضافات جديدة على المسجد القديم تجسدت ببيوت أزواج النبي التي كانت تحيط به، وقد نفذ هذه العملية عمر بن عبد العزيز والي المدينة المنورة في عصر الوليد بن عبد الملك. وقد استغرقت عملية الإضافة هذه بضع سنوات، ومع ذلك فقد كلفت كثيراً، لأن الوليد بن عبد الملك حرص على أن تكون مواد البناء المستخدمة في هذا المسجد مشابهة لتلك المواد التي استخدمت بمسجد دمشق[٣].

كذلك اهتم الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد آخر هو المسجد الأقصى بالقدس الشريف، وذلك انطلاقاً من قدسية المكان وطهارته، أي المكان الذي أقيم عليه المسجد وقد جاءت هذه القدسية من عملية الإسراء والمعراج المعروفة التي تمت بإسراء الرسول الكريم ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف، وهي التي ذكرت في القرآن الكريم في آية الإسراء[١]. كما أكد الرسول ﷺ

---

[٣] – ابن عساكر، تاريخ دمشق، مجلد ٢، تحقيق صلاح الدين المنجد، ص ٢١ وما بعدها. ابن جبير، الرحلة، طبعة بيروت، ١٩٥٩، ص ٢٣٥.

[١] – عبد القادر ريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، طبعة دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٩، ص ٤٧ وما بعدها.

[٢] – تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٨٤.

[٣] – المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٥٤.

[١] – سورة الإسراء، الآية ١.

على هذه القدسية في حديث معروف، نوّه فيه بعظمة المسجد الأقصى إلى جانب المسجد الحرام والمسجد النبوي[٢].

وقبل بناء هذه المساجد كان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أنجز بناء قبة الصخرة بالقدس بجوار المسجد الأقصى، التي تعد من أبدع وأروع ما بناه الأمويون في هذا المجال، وسميت كذلك لأنها بنيت فوق الصخرة المقدسة التي عرج الرسول ﷺ منها إلى السماء. وهنا تنبغي الإشارة إلى أن عبد الملك بن مروان، لم يقم ببناء هذه القبة حباً منه للعمارة أو شغفاً بل كان ذلك بسبب رغبته في تحويل أهل الشام في حجهم وعمرتهم إلى هذه القبة، بدلاً من الذهاب إلى الحجاز حيث مكة المكرمة والمدينة المنورة، لأنه كان يريد أن يخلق وسيلة ضغط على الأرض على عبد الله بن الزبير، الذي كان يقود حركة معارضة قوية ضد الحكومة الأموية. وقد أنجزت عمارة قبة الصخرة في سنة ٧٢هـ/٦٩١م[٣].

وقد جاءت على هيئة قبة من ثمانية أضلاع، وكانت القبة من الخشب المطلي من الأعلى بمادة الرصاص ومن الداخل بمادة الجص، وقد جاء كل ضلع من أضلاعها الخارجية بطول ٢٠,٥ م وبارتفاع تسعة أمتار. وتوجد في هذه الأضلاع نوافذ تعكس الضوء إلى الداخل، وتعرف هذه القبة أيضاً بجامع عمر، لأن عمر بن الخطاب كان قد أقام فوقها مصلى مصنوع من الخشب أثناء زيارته لفلسطين في عام الرمادة[١].

وقد تابع الأمويون مسيرة بناء المساجد، حينما وصلوا إلى الحكم بالأندلس بعد سقوط دولتهم بالمشرق، على الرغم من أنهم لم يكونوا يعطون للمسألة الدينية ذلك الاهتمام الكبير، لكنهم كانوا يرون في المساجد أمكنة تؤدي عدة وظائف اجتماعية، مثل تأدية فرض الصلاة وممارسة عملية التعليم لأن المسجد في العصور الوسطى، بقي المكان الأهم لممارسة عملية التدريس والتعليم بشكل عام.

ومن أهم المساجد التي بنيت بالأندلس في الفترة الأولى من حكم العرب هناك كان مسجد قرطبة الذي بدأ بتطويره ووضع أسسه الأمير الأموي الأول عبد الرحمن الداخل، الذي أراد أن يحاكي ما فعله أجداده الأمويون بالمشرق، ولاسيما الوليد بن عبد الملك الذي بنى المسجد الأموي بدمشق، والمسجد الأقصى بالقدس الشريف، ووسع المسجد النبوي بالمدينة المنورة. وقد أراد عبد الرحمن الداخل أن يكون مسجد قرطبة صورة طبق الأصل عن المسجد الأموي بدمشق، ذلك لأن هذا الأمير حاول على الدوام، أن يجسد الحياة الشامية على أرض الأندلس قدر إمكانه في كافة المجالات.

---

[٢] – صحيح البخاري، ج ١، ص ٢٠٧.

[٣] – كمال الدين سامح، المرجع السابق، ص ١٨.

[١] – محمد عباس بدر، المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية، ص ١٣٣ وما بعدها.

انتهى عبد الرحمن الداخل من بناء هذا المسجد في سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م، وجاء بناؤه مشابهاً إلى حد كبير بناء مسجد دمشق الكبير، وخاصة في بناء العقود المزدوجة التي تساعد على ارتفاع السقف، ثم وضع المئذنة وفي نواح أخرى[٢].

وتتالت الزيادات على هذا المسجد في عصر الأمراء والخلفاء الأمويين، الذين رأوا في هذه الزيادات ضرورة دينية كبيرة، وخاصة بعد أن ساد المذهب المالكي بالأندلس كمذهب وحيد[١]، ويرى فقهاء هذا المذهب أنه لا يجوز للمسلمين أن يصلوا صلاة الجمعة إلا في مسجد واحد ضمن المدينة الواحدة، هذا بالإضافة إلى أن أعداد المسلمين كان في حالة ازدياد مع مرور الزمن، ولم تنته الخلافة الأموية بالأندلس حتى أصبح مسجد قرطبة من أعظم مساجد الدنيا في العصور الوسطى من حيث ضخامته واتساعه، ومن حيث رونقه ودقة صنعته وتنفيذه وكلفته المادية.

وحينما جاء الأمير هشام الرضا إلى الحكم بعد وفاة والده عبد الرحمن الداخل، اهتم بمسجد قرطبة الكبير الذي أسسه والده اهتماماً كبيراً، وتجسد ذلك على أرض الواقع بتوسعة هذا المسجد، فأضاف إليه المئذنة والميضأة وبعض السقائف. وهذا الأمر ليس غريباً على الأمير هشام الرضا، إذا عرفنا أنه كان رجلاً متديناً بعكس والده وبعكس ابنه الحكم الربضي.

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، جرت على المسجد الأموي بقرطبة زيادة كبيرة من ناحية المحراب باتجاه الجنوب، وقيل أن عرض هذه الزيادة بلغ خمسين ذراعاً، وبلغ طولها مئة وخمسين ذراعاً، وبلغ عدد السواري في هذه الزيادة ثمانين سارية، ثم أمر بعد ذلك بنقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد الذي وصلت إليه الزيادة، وقد حصلت هذه الزيادة الهامة في سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٩م، أي قبل وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط بأربع سنوات[٢].

كذلك فقد اهتم الخلفاء الأمويون بزيادة هذا المسجد أحياناً وبترميمه أحياناً أخرى. ففي عصر الخليفة الناصر لدين الله وُجد أن المئذنة التي بناها الأمير هشام الرضا، بدأت بالتصدع فأمر الخليفة الناصر لدين الله بإزالتها نهائياً وبنائها من جديد وزيادة ارتفاعها السابق الذي وصل إلى أربعين ذراعاً فأصبحت ثمانين ذراعاً، وبلغ عدد أدراج كل مطلع إلى نهاية المئذنة مئة وسبع درجات، وحصل ذلك في سنة ٣٤٠هـ/٩٥٢م، لكن ما حدث في زمن ابنه الحكم المستنصر كان أكبر بكثير، وقد تجسد ذلك بزيادة كبيرة بهذا المسجد في قسمه الجنوبي، وهي زيادة جاءت لتواكب الزيادة الكبيرة في عدد المصلين بهذا المسجد. كما زوده بالماء العذب من عين ماء بجبل قرطبة، بواسطة الهندسة المائية التي كانت متقدمة في هذا العصر، كما سبق

---

[٢] - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٢.

[١] – بدأت هذه الزيادات منذ عصر الأمير هشام الرضا الذي حكم من ١٧٢ – ١٨٠هـ .

[٢] – ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٢ و ٢٣٠ . عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، ص١٩ وما بعدها.

وتحدثنا عنها بالتفصيل، وهي هندسة الفقارات والخطارات التي اعتمدت أنابيب من فخار وغيره[١].

أما الزيادة الأخيرة في مسجد الأمويين بقرطبة، فقد نفذها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر في الجانب الشرقي من المسجد، مما اضطره إلى هدم العديد من البيوت في هذه الجهة بعد التعويض لأصحاب هذه البيوت بما يوازي قيمة بيوتهم، وقد حصلت هذه الزيادة في سنة ٣٨٠هـ/١٠٠١م[٢]، وكان المنصور يريد على الدوام أن يرضي رجال الدين والعامة، لذلك فإن إقدامه على هذه الزيادة المكلفة مالياً، كان من أجل ذلك.

هذا ومن الجدير بالذكر، أن الحكام الأندلسيين حتى عصر الخلافة، لم يحصروا اهتمامهم بمسجد قرطبة فحسب بل أمروا ببناء العديد من المساجد بقرطبة وخارجها وشاركتهم في ذلك بعض نسائهم وجواريهم.

لكن العصور التالية لم تشهد ذلك الاهتمام ببناء المساجد تماثل مسجد قرطبة باستثناء عصر الموحدين الذي شهد بناء مسجد كبير بإشبيلية قيل إنّه يفوق في حجمه واتساعه أي مسجد آخر بالأندلس. وقد بني هذا المسجد في الفترة بين ٥٦٧-٥٧٠هـ. وفي عام ٥٨٠هـ/١١٨٥م أمر الخليفة أبو يعقوب المنصور ببناء ملحقات لهذا المسجد وأشرف على ذلك المهندس الذي اشتهر في عصر الموحدين وهو أحمد بن باسة الذي أبدع بصنع المصاعد إلى أعلى مئذنة بالجامع على طريقة السطوح المائلة، كما قيل إنّه لا يوجد نظير لها في المساجد الأخرى، فهي متميزة في ارتفاعها وفي طريقة صنعها العجيبة. ومازالت هذه الصومعة قائمة بإشبيلية ويسميها الإسبان الخيرالدا أي الدوارة[١].

اهتم العرب إضافة إلى المدن والمساجد بنوع آخر من العمارة تجسد ببناء عدد من القصور في مناطق مختلفة من بقاع الدولة العربية. والأمويون هم الذين بدأوا في هذه المسيرة التي تطورت في الفترات اللاحقة كما سنرى. وكان معظم القصور الأموية في بلاد الشام التي اختاروها كمناطق لإقامتهم المؤقتة أو الدائمة بعيداً عن زحمة المدن واختناقاتها المتعددة وهي سمة انفرد بها خلفاء بني أمية في أثناء حكمهم بالمشرق، وفي أثناء حكم أحفادهم بالأندلس ولا يستبعد أن يكون سبب محبة الأمويين لسكنى القصور في الصحارى البعيدة، يتعلق بناحية أمنية بحتة، لأنهم كانوا يشعرون على الدوام أنهم مستهدفون من قبل عدد من الأحزاب المعارضة، التي لم تعترف بشرعية حكمهم على الإطلاق.

---

(١) - أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٢١٢.

(٢) – ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٨٨. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٧٦.

(١) – ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٦١ وما بعدها.

وعلى الرغم من وقوع هذه القصور في مناطق شبه صحراوية، فإن المهندسين الذين بنوها تمكنوا بنجاح من التغلب على مشكلة المياه التي جعلت الحياة في هذه القصور ممتعة ومريحة إلى حد كبير من جميع النواحي، فقد احتوت على الحمامات والمغاسل وأماكن العبادة وما إلى ذلك من أمور من هذه القصور:

قصر المنية نسبة إلى خربة هناك تسمى خربة المنية إلى الشمال من بحيرة طبرية، وقد جاء بناء هذا القصر على هيئة قلعة رومانية. وقصير عمرة إلى الشرق من مدينة عمان الأردنية، وهو صغير الحجم بني من حجارة كلسية من المنطقة المحيطة بها[٢]، وقصر جبل سيز إلى الجنوب الشرقي من دمشق على مسافة ١٠٥كم وهو يشبه قصر المنية إلى حد كبير، وقد بني ربما في عصر الوليد بن عبد الملك[١].

لكن أهم القصور الأموية تلك التي بنيت في عصر هشام بن عبد الملك، لأن هشام عُرف عنه الاهتمام ببناء القصور، إلى درجة أنه سكن إحداها في الرصافة طول حياته، ففي سنة ١٠٩هـ/٧٢٨م أعطى أوامره لبناء قصر الحير الغربي في منطقة تقع إلى الشرق من بلدة القريتين بالقرب من مدينة حمص بوسط سورية، وهو مربع الشكل طول ضلعه نحو سبعين متراً، وفيه العديد من الغرف المعدة للإقامة والسكن[٢].

كما بنى قصراً ثانياً هو قصر الحير الشرقي بناه على أثر انتشار الطاعون في سنة ١٠٥هـ/٧٢٤م، واستمرت عملية البناء خمس سنوات متواصلة. بناه بالقرب من بلدة الطيبة السورية بمحافظة حماة على طريق حلب، وهو يختلف عن القصور سابقة الذكر في أنه تألف من قصر وبلدة صغيرة بجواره ضمت حمامات وبساتين، ويبدو أنه كان قد أُعد لإقامة هشام بن عبد الملك، وهو على شكل مربع طول ضعله حوالي ٦٦م، ويشبه إلى حد كبير قصر الحير الغربي[٣].

وإلى الشمال من مدينة عمان الأردنية، بنى الأمويون قصر حمام الصرح، الذي يشبه قصير عمرة سابق الذكر، مما يدل على أنه بني في عصر هشام بن عبد الملك، الذي أمر ببناء قصر آخر هو قصر المفجر بالقرب من مدينة أريحا الفلسطينية، وهو من القصور الكبيرة ويضم عدداً من الغرف ومسجد وحمام وبركة للسباحة في قسمة الجنوبي[٤].

---

[٢] ـ لانكستر هاردنج، آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، ص ١٥٣ و ١٥٧.

[١] ـ ديمتري برامكي، تطور الهندسة المعمارية والفن في عصر الأمويين، طبعة بغداد، ١٩٥٧، ص ١٣٨.

[٢] ـ أحمد فائز الحمصي، روائع من العمارة الإسلامية في سورية، طبعة وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٨٢، ص ١٠٢ وما بعدها.

[٣] ـ عبد القادر ريحاوي، المرجع السابق، ص ٧٣.

[٤] ـ لانكستر، المرجع السابق، ص ١٨٠.

وفي العصر العباسي الأول لم تقم أية قصور مستقلة، بل بنيت بعض القصور في بغداد وسامراء، كانت مقراً للخلفاء. أما في العصر العباسي الثاني فقد اشتهرت بشكل خاص قصور أصحاب الدول المنفصلة، مثل الدولة الحمدانية بحلب والدولة الطولونية والإخشيدية بمصر. فمن القصور الفخمة التي بنيت في عصر السيطرة البويهية، قصر معز الدولة البويهي الذي بناه إلى الشرق من مدينة بغداد سنة ٣٥٠هـ/٩٦٢م، كما جددت بعض قصور بغداد[١].

لكن القصور الأهم في العصر العباسي، كانت قد بنيت في الدول المنفصلة عن الخلافة العباسية، لأن حكام هذه الدول كانوا يريدون أن يظهروا دولتهم بمظهر العظمة والأبهة المتفوق أو المماثل للدولة المركزية ببغداد، فقد شيد الطولونيون بمصر عدداً من المنشآت العمرانية كان من أهمها قصر ابن طولون بمدينة القاهرة الذي تميز بالضخامة والاتساع إلى درجة أطلقوا عليه اسم (الميدان). وكان له عدة أبواب منها، باب الميدان الذي كان مخصصاً لدخول الجند وخروجهم، وباب الخاصة الذي كان مخصصاً للمقربين من الأمير الطولوني وخاصته، وباب الجبل الذي يؤدي إلى جبل المقطم، وباب الدرامون وهو نسبة لرجل من الحجاب السود، كان مكلفاً بمراقبة ما يرتكبه الغلمان الأفارقة من جرائم، وباب دغناج نسبة إلى خادم أسود كان يجلس فيه، وباب الساج لأنه صنع من خشب الساج، وباب الصلاة لأنه كان في الشارع الأكبر، وكان على هذا الباب صورة لأسدين، لذلك كان يسمى أيضاً باب السباع، وقصر خمارويه المسمى قصر الذهب بالقاهرة الذي وصف بأنه تحفة فريدة في هندسة القصور والعمارة في عصره، فقد قيل إنّ خمارويه كان يرى من هذا القصر نهر النيل والجبل المقطم والصحراء وكل ما في مدينة القطائع مدينة أبيه[٢]، وقصر محمد بن طغج الإخشيدي المسمى قصر المختار، الذي بناه بجزيرة الروضة بالقاهرة، وقصر المعز الفاطمي الشرقي والغربي بالقاهرة إلى غير ذلك[١].

أما في الأندلس فقد كان للقصور نكهة خاصة، كانت تتطور للأفضل مع مرور الأيام، حتى وصلت إلى أنها تحولت إلى أن أصبحت مراكز بحثية زراعية متقدمة. فقد بدأت هذه القصور بالظهور منذ عصر الإمارة الأموية وازدهرت في عصر الخلافة الأموية وعصر دول الطوائف. وقد كان ذلك استمراراً لما كان سائداً في عصر الأمويين بالمشرق الذين بنوا العديد من القصور في سورية والأردن وفلسطين وغيرها. وكان عبد الرحمن الداخل من مؤسسي الإمارة الأموية بالأندلس أول من بنى قصراً بجوار العاصمة قرطبة تقليداً لأجداده الأمويين لأن هذا الأمير كان يريد أن يجسد الحياة الأموية بالمشرق على أرض الأندلس، متأثراً بذلك بتيار حنين

---

[١] – ابن مسكوية، تجارب الأمم، ج ٢، ص ٢٠٥ وما بعدها. ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص٢٥٥.

[٢] – المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٣١٧.

[١] – المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٤٨٥. ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٢.

إلى المشرق لم يفارقه طول حياته، رغم ما كان ينعم به بالأندلس من حياة رافهة في طبيعة مناسبة وفي بيئة جميلة بكل مظاهرها وأشكالها.

ويظهر ذلك الواقع من خلال التسمية، التي أطلقها على أول قصر ريفي في تاريخي العالم الغربي، فقد سماه قصر الرصافة أو منية الرصافة، وذلك تيمناً برصافة جده هشام بن عبد الملك الذي تربى في كنفه بمحافظة الرقة السورية اليوم. وتقع هذه إلى الشمال الغربي من مدينة قرطبة في سفح جبل قرطبة، وكان عبد الرحمن الداخل يقضي فيها معظم أيام الصيف، وكانت تؤدي وظيفة هامة بالنسبة له وهي الرغبة في الابتعاد عن أماكن الازدحام والخلود إلى حياة الهدوء والاستمتاع بمباهج الطبيعة غير المتكلفة أو المصطنعة، كما قام ابنه عبد الله ببناء منية أخرى ببلنسية، سماها أيضاً منية الرصافة، وهي ماتزال موجودة حتى اليوم[٢].

تتالى بعد ذلك ظهور القصور الريفية أو المنى وذلك تقليداً لعبد الرحمن الداخل الذي يُعد الرائد في مجال نقل الكثير من مظاهر الحياة المشرقية إلى الأندلس. فقد بنى عبد الرحمن الأوسط قصراً جديداً بجوار قصر الإمارة بقرطبة وقد اعتنى ببنائه أكثر من عبد الرحمن الداخل الذي كان قصره قريباً إلى حياة البساطة والابتعاد عن مظاهر الترف والبذخ. فقد بنى عبد الرحمن الأوسط العديد من الأبراج في قصره، وغطاها بالزجاج الشفاف ليتمكن من كشف المناظر الطبيعية، التي كان يطل عليها هذا القصر ولاسيما منظر السفن، وهي تسير عبر الوادي الكبير، كما بنى قصراً لبعض جواريه المحببات إلى قلبه، سماه قصر المدنيات ويقال دار المدنيات[١].

وقد بنى هذا القصر بمدينة قرطبة حباً وتقديراً من الأمير عبد الرحمن الأوسط لمسائل الموسيقى والغناء وما يتصل بذلك لأن اللواتي نزلن به كنَّ من المغنيات المقربات إليه، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مدى الرقي والتقدم الذي وصله العرب بالأندلس فكانوا رسل حضارة حقيقيين إلى أوروبا والعالم. وحينما خبت هذه الروح الطليعية المتحضرة، خبت شمس العرب وبدأ ظلامهم قاتماً عكسته بوضوح مظاهر الجهل والتعصب الديني والتغييب المستمر وهي مظاهر كلفت الأمة العربية كثيراً، فقد سببت لها مزيداً من القهر والذلّة والتقهقر والتدهور وما إلى ذلك من أمور مجحفة ومؤلمة.

نشطت عملية بناء القصور في عصر دويلات الطوائف، حتى أصبح ذلك مظهراً مميزاً لحكام هذا العصر غير الميمون. ويرجع سبب هذا النشاط في المقام الأول إلى حب الظهور والتباهي والتميز لأن حكام دويلات الطوائف كانوا غير متوافقين، فقد سعى كل واحد منهم بشتى الطرق على أن تبدو دولته بمظهر عام، يتميز عن كل الدويلات الأخرى المجاورة. وقد انعكس هذا الواقع بجزء كبير منه في

---

[٢] ـ أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ١٠٨.

[١] ـ انظر عن ذلك كتابنا: المصطلحات الحضارية العربية، مادة دار المدنيات.

إقدام حكام الطوائف على التنافس في بناء القصور الحكومية، التي أرادوا من خلالها أن يبرهنوا على عظيم سيادتهم وسلطانهم ورغم أن كل حاكم من هؤلاء الحكام بنى لنفسه قصراً، كي يكون داراً لحكومته وعاصمة لدولته فإن بعض هذه القصور تميز عن البقية بعدد من الملامح، التي جعلته محور اهتمام الكتّاب والمهتمين، على الرغم من أن هناك عبارة عامة كثيراً ما ذكرها الكتّاب حينما كتبوا عن هذه القصور هي (تحار فيه الأبصار). ومن أمثلة هذه القصور المتميزة، قصر أبي محمد بن صمادح حاكم المرية، الذي قام ببناء قصر بديع في موقعه العام وفي أجزائه المختلفة، فقد حرص أن يكون هذا القصر في موقع متوسط بين الجبل والبحر، وأن يكون في وسط بستان ذي أرض خصبة، تجود فيها كل الثمار التي جلبت إليه من الشرق والغرب. وتألف من عدة طوابق كان الجالس في أحدها يتمتع بسهولة بمشاهدة ما يجري في مرفأ المرية من حركة للسفن القادمة والمغادرة، على اعتبار أن مرفأ المرية أصبح منذ بنائه في عصر الخليفة الناصر لدين الله الأموي أحد أكبر وأنشط المرافئ بجنوب غرب أوروبا أي في إسبانيا والبرتغال. وقد بلطت أرضية هذا القصر بالرخام الجميل وزينت بالنقوش والزخارف الأنيقة، كان من بينها زخارف ذهبية[١].

وحينما انفرد المأمون بن ذي النون بحكم مدينة طليطلة في عصر الطوائف، بنى لنفسه قصراً بديعاً للغاية عكس صورة البذخ الكبيرة التي ركز عليها المأمون فاستخدم في هذا القصر الكثير من المرمر في العديد من أجزائه، وكذلك الزجاج الملون بعدة ألوان، وزينت أماكن عديدة أيضاً في هذا القصر بالذهب والفضة وصور الطيور والحيوانات[٢].

كما بنى المعتمد بن عباد بإشبيلية قصراً مماثلاً من حيث البناء والحجم ولكنه جاء متفوقاً من حيث مظاهر الترف والبذخ، فقد احتوى هذا القصر على تمثال الفيل تقذف منه الماء باتجاه بركة القصر، وتمثال لجمل صنع من البللور كانت عيناه عبارة عن ياقوتتين جميلتين، أضف إلى ذلك فقد زُين بنفائس أخرى[١] لم يقتصر البذخ في هذه القصور على المظاهر والملامح الخارجية منها، بل شمل ذلك الحياة اليومية التي كانت تمارس داخل هذه القصور. نذكر من ذلك حرص المعتمد بن عباد على تحقيق حلم جاريته الرميكية التي كان يهيم بها غراماً وحباً، وقد تجسد حلم هذه الجارية بإعادة صورة حياتها السابقة قبل أن تأتي إلى قصر المعتمد. بأن يهيئ لها أرضاً موحلة لتضع فيها أقدامها، كما كانت تفعل في الماضي، فأمر لها المعتمد بذلك، لكنه أمر بأن يكون الطين من معجون الكافور والعنبر. وقد كانت تجري بعض الصور المشابهة في قصور بني ذي النون وغيرها[٢].

---

[١] ـ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٨٤ ـ ٨٥.
[٢] ـ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم ٤، ج ١، ص ١٠٢.
[١] ـ المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٣٩٣، وما بعدها.
[٢] ـ ابن بسام، المصدر السابق، قسم ٤، ص ١٠١-١٠٢.

تطورت هذه القصور مع الأيام، حتى أصبحت في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي مراكز بحوث متقدمة لتطوير الزراعة بكل ميادينها. وكان من رواد هذه البحوث العالمان العربيان الشهيران ابن البصال وابن العوام، اللذان وضعا قواعد ثورة علمية حقيقية في مجال التطوير الزراعي بالأندلس ساعدهما في ذلك أن القصور وخاصة بإشبيلية وطليطلة كانت تتبع لها أراضٍ زراعية خصبة، تشكل بيئة مناسبة في كل المقاييس لإجراء تجارب زراعية متطورة على مدار السنة.

بقي أن نشير بفخر واعتزاز، إلى أن العرب في العصور الوسطى طوروا هندسة متقدمة كانت لها نتائج إيجابية عملاقة ليس في حياة سكان المنطقة العربية فحسب، بل في حياة كل المجتمعات الإنسانية، هذه الهندسة هي هندسة جر المياه من مناطق الوفرة إلى مناطق الندرة والحاجة، وكذلك خزن المياه في خزانات كبيرة ثم شق العديد من القنوات والترع من الأنهار الكبرى، وفي النهاية توزيع المياه إلى البيوت في المدن الكبرى وما إلى ذلك من أمور. بدأ الإقلاع في هذا المشروع الحضاري المتقدم في العصر الأموي حينما وجه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بضرورة استكمال نظام الري بغوطة دمشق، وقد تم ذلك بحفر قناة جديدة على نهر بردى عند مدخل دمشق الغربي، عُرفت بقناة يزيد وتبعاً لذلك سمي يزيد بمهندس بني أمية[١]، وفي عصر الوليد بن عبد الملك، ركز والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي[٢] على تطوير الزراعة من خلال إعادة إصلاح قنوات الري المتفرعة عن نهري دجلة والفرات وشق قنوات وترع جديدة وتجفيف المستنقعات في عدد من المناطق العراقية[٣].

وفي زمن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي بدأت مشاريع تمديد قنوات لمسافات طويلة لجر المياه في المغرب وتخزين المياه في خزانات كبيرة لم يكن المغرب قد شهدها قبل الفترة الأموية وكان ذلك بشكل خاص بالمغرب الأدنى (تونس) والمغرب الأقصى (المملكة المغربية)[٤].

وفي العصر العباسي شهد العراق وبعض المناطق الأخرى نهضة هندسية في مجال الري كانت في طليعة المنجزات الحضارية العباسية وهي امتداد حضاري بالغ الأهمية لما كان قد حصل في العصر الأموي وهي أعمال ليست غريبة على ثقافتنا العربية أو على منطقتنا التي شهدت العديد من الحضارات المتقدمة ونخص بالذكر منها الحضارة الآرامية التي تميزت بهندسة نقل المياه عبر أنابيب فخارية وغيرها إلى مسافات هائلة في طولها وصعوبة تضاريسها، وقد أخذ الرومان هذه

---

[١] ـ انظر عن ذلك كتابنا: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، طبعة جامعة دمشق، ١٩٩٦، ص ٣٥.

[٢] ـ شغل ولاية العراق في العصر الأموي من سنة ٦٦ إلى سنة ٩٥هـ .

[٣] ـ انظر كتابنا: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٧٨ و ٨٠.

[٤] ـ انظر كتابنا: تاريخ المغرب الإسلامي، طبعة جامعة دمشق.

الهندسة عن الآراميين ونسبوها ظلماً وعدواناً لحضارتهم إلى درجة أن الغالبية العظمى من شعبنا العربي ينسبها إلى الرومان.

كان من أهم ما صنعه العرب في العصر العباسي حفر أنهار فرعية على نهر دجلة بشكل خاص لري الأراضي والبساتين التي استجدت حول العواصم العباسية وفي داخلها وخاصة بغداد وسامراء والمتوكلية وغيرها من البلدات والقرى المجاورة، كذلك قاموا بمشاريع هامة في حقل تجفيف المستنقعات في منطقة البصرة وما جاورها بجنوب البصرة. وفي مصر جرت محاولات لكبح جماح فيضان نهر النيل هناك ومنها تلك التي قام بها بعض علماء بغداد في عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي. وفي المغرب الأدنى (تونس) قام الأغالبة (وهم أتباع العباسيين) الوحيدين في الجناح الغربي من الوطن العربي الكبير ببناء العديد من الخزانات المائية التي تسمى في المغرب ككل (المواجل) وفي المشرق (الصهاريج) للوفاء بعملية السقاية والري وتوفير مياه الشرب وما إلى ذلك وهي هندسة متقدمة قياساً على تقانات ذلك العصر أنشئت لمكافحة مظاهر الجفاف في مناطق شبه صحراوية أو قريبة من الصحراء. وفي الأندلس بدأت ثمار هذا النظام الهندسي المتقدم تظهر منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. ففي هذا القرن توصل المهندسون الأندلسيون من العرب إلى ابتكار من أعظم الابتكارات العربية في ميدان هذه الهندسة الراقية تجسد هذا الابتكار في نظام القنوات الجوفية الذي ساعد على إيصال المياه إلى مدينة مجريط (مدريد) على أثر الانتهاء من بنائها من وادي الرمل المجاور لها من جهة الشمال. فقد حُفرت آبار غزيرة المياه ووضع في قعرها قنوات تمتد حتى تصل إلى مدريد وهي تنحدر من الأعلى إلى الأسفل، وقد انتشر هذا النظام فيما بعد بالعديد من مناطق الأندلس والمغرب، وتتألف القنوات الجوفية من قناة ضخمة تعد هي (الأم) ومنها تتفرع في داخل المدينة شبكة معقدة من قنوات صغيرة فرعية، وفي كل عقدة يتجمع عندها عدد من تلك الفروع مقام خزان أو مستودع يجتهد في حمايته ووقايته بالطوب والفخار، وهذه الخزانات هي التي يتحكم منها المهندسون والخبراء في توزيع الماء توزيعاً عادلاً بين الأحياء والمنازل والحدائق العامة والخاصة، وتبنى عليها صهاريج مقفلة بأبواب وقضبان من الحديد، لا يسمح بدخولها إلا للقنواتي، الذي يوكل إليه الصهريج ويكون مسؤولاً عنه ويحتفظ بمفتاحه. وهناك صهاريج عامة في الشوارع لسقيا الناس والبيوت، وتكون أحياناً على ظهر الأرض وأحياناً أخرى في باطن الأرض، إذا كانت القناة التي تمده على عمق شديد، وحينئذ لا يوصل إليها إلا بسلالم، تصل في بعض الأحيان إلى نحو عشرين درجة[١].

---

[١] – انظر خايمه أوليفر آسين، تاريخ اسم مدريد، ص ٨٩.

- F.W.Robins, The Story of Water Supply, Oxford University Press, 1946, pp.116-118.

وفي عصر الطوائف بالأندلس ظهر نظام هندسة الفقارات مفرد فقارة وهي عبارة عن قناة لجر المياه إلى المناطق العطشى أو المحتاجة وهو نظام انتقل إلى الأندلس من تونس[٢].

وفي عصر المرابطين اشتهر في ميدان هذه الهندسة المهندس عبد الله بن يونس الأندلسي الذي نقله المرابطون من الأندلس إلى المغرب بعد فترة وجيزة من دخولهم الأندلس ليعمل على تنفيذ العديد من المشاريع المائية في المغرب الأقصى وخاصة في مراكش عاصمة دولة المرابطين. ففي هذه المدينة قام هذا المهندس بابتكار نظام جديد لجر المياه من الأماكن البعيدة في جوف الأرض، لأن مدينة مراكش كانت تفتقر إلى المياه حيث لم يكن فيها سوى بعض الآبار، فقام المهندس ابن يونس بدراسة طبقات الأرض هناك، وتوصل بعد جهود مضنية إلى اختراع طريقة المجاري الجوفية، فتوجه إلى طرف من أطراف المدينة يعلو فيه مستوى الأرض على مثله في داخلها، ثم حفر بئراً كبيراً ثم أوصل من قاعها قنوات تسير تحت الأرض في انحدار حتى تصل الماء إلى مختلف أحيائها قريباً من سطح الأرض. ويذكر الإدريسي أن السلطان المرابطي، أُعجب بهذا الإنجاز ومنح صاحبه ابن يونس عطاء كبيراً. ومنذ ذلك الحين بدأ أهل المدينة في بناء قنوات فرعية تستمد من تلك القناة الأم، وهذا ما ساعد على اتساع عمران مدينة مراكش، وزيادة مروجها وحدائقها، وأصبحت قاعدة وحاضرة للدولتين المرابطية والموحدية، وقد سمي هذا النظام من القنوات (الخطارة)[١]. ومازالت هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية باقية بمدينة مراكش، ويبلغ عددها نحو من ثلاثمئة وخمسين قناة، يصل طول كل منها إلى نحو خمسة كيلومترات، غير أن الإهمال لحقها أخيراً وبطل استعمال عدد منها.

أما في عصر الموحدين، فقد امتاز المهندسون الأندلسيون بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية دقيقة، وإنّ الذي يطالع ما ورد بخصوص إيصال الماء إلى الرباط من عيون غبولة[٢] التي تبعد عنها مسافة تسعة عشر كيلومتراً إلى الجنوب الغربي، وحينما تقرر إجراء الماء لسقي البحيرة بداخل مدينة إشبيلية، وكذلك حينما أمر الخليفة أبو يعقوب المنصور الموحدي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م بجلب الماء إلى مدينة سبتة في قرية بليونش حينما تقرر جلب الماء لميضأة جامع القرويين من مدينة فاس أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ليشهد بما للمهندسين الأندلسيين من باع في هذا الميدان[٣].

---

[٢] – محمود علي مكي، مدريد العربية، طبعة وزارة الثقافة بمصر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص ٥٢.

[١] – الإدريسي، نزهة المشتاق، نشر وترجمة راينهات دوزي خويه، ص ٦٨.

[٢] – تقع عيون غبولة في الجنوب الغربي لمدينة الرباط على بعد تسعة عشر كيلومتراً منها وكان تسريب الماء منها إلى الرباط سنة ٥٤٥هـ.

[٣] – ابن صاحب الصلاة، المهن بالإمامة، ج ٢، ص ٤٤٨.

وبالاعتماد على نظام الفقارات والخطارات فقد تمكن المهندس الأندلسي الحاج يعيش المالقي من بناء خزان للماء داخل مدينة إشبيلية كما نجح في تسريب المياه لسقي وتزويد قصور البحيرة الملكية وتوصيله إلى داخل المدينة من منطقة مجاورة هي منطقة قلعة جابر[1]. وكان الخزان المائي الذي بناه في وسط مدينة إشبيلية بحارة كانت تدعى (ميور).

ويبدو أن هذا النظام الهندسي الراقي في ميدان نقل المياه وتوزيعها، قد انتشر بكل المناطق الأندلسية في ميدان الري وسقاية الأرض الزراعية، والدليل على ذلك تلك الآثار الكثيرة، التي مازالت باقية حتى اليوم من ذلك محكمة المياه التي مازالت تُعقد بمدينة بلنسية بشرق الأندلس حتى اليوم، وهي محكمة أهلية لا تدخل فيها الحكومة، ومهمة هذه المحكمة توزيع المياه بالتساوي والعدل بين الفلاحين عبر قنوات دقيقة تفي بأغراض الري والسقاية.

وفي القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي اشتهر في مجال هندسة المياه العالم المرموق أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بالكرخي، وتعود شهرته إلى تقدمه اللافت في عصره في ميدان علم استنباط المياه، الذي جسده في كتابه الهام (أنباط المياه الخفية) الذي ألفه بمدينة الموصل. وفي هذا الكتاب يقوم الكرخي بوصف الماء وتوزيعه وطبيعته السائلة والغازية، وأشار إلى ملاحظة علمية متقدمة هي أن توزيع الماء يختلف بين منطقة وأخرى، حتى يتحقق ما نسميه اليوم بالتوازن البيئي العام. كما تحدث عن المياه الجوفية وأشار إلى أن هذه المياه، لا تتجدد رغم سقوط أمطار غزيرة وهي حقيقة أثبتها العلم المعاصر. وفي مكان آخر من كتابه، يشير إلى أن النباتات تكون في الغالب دليلاً على وجود الماء في أمكنة معينة، كما أشار إلى أن المياه الجوفية هي عدة أنواع من حيث صلاحيتها للاستخدام البشري، فقد صنفها في عدة أصناف منها الثقيلة والخفيفة والرقيقة والساخنة والعذبة والكريهة. وفي نهاية الأمر نوّه بضرورة معرفة الانخفاض والارتفاع في حال جر المياه عبر قنوات خاصة من منطقة إلى أخرى، وكذلك طرق صيانتها وحمايتها من وقوع المحاذير وما إلى ذلك.

هذا وانتشر نوع من العمران في عصر الأيوبيين والمماليك على نطاق واسع، تجسد ببناء عدد كبير من المدارس، حملت لواء التدريس في مصر والشام والعراق بشكل خاص. ومن المتعذر ذكر هذه المدارس جميعها في هذا المكان لكثرتها، لذلك فسنكتفي بذكر أهمها وأكبرها وأشهرها مراعين في ذلك التسلسل الزمني قدر الإمكان. ففي مدينة القاهرة بنيت العشرات من المدارس، وكذلك بمدينة الإسكندرية، نذكر منها على سبيل المثال المدرسة الفاضلية بالقاهرة[1] والمدرسة

---

[1] ـ تقع هذه القلعة إلى الجنوب من إشبيلية على مقربة من قرمونة. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ج ٢، ص٤٦٨ وما بعدها.

[1] ـ سميت كذلك نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني.

الكاملية، والمدرسة الصالحية، والمدرسة الظاهرية والمدرسة المنصورية، والمدرسة الشيخونية[٢].

أما في بلاد الشام، فقد بنيت مدارس هامة أيضاً مثل دار الحديث النورية والمدرسة الظاهرية والمدرسة العادلية والمدرسة الناصرية البرانية والمدرسة الجقمقية والمدرسة الشامية البرانية[٣]. وكانت هذه المدارس بمثابة كليات جامعية بالمفهوم المعاصر استطاعت أن تخرج كبار العلماء في القرون المتأخرة من العصور الوسطى.

[٢] ـ انظر عن هذه المدارس، علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج ٦، ص ١٢و١٤ و ج١، ص ١٥.

[٣] ـ انظر عن هذه المدارس، النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس.

المصادر:

الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. تاريخ الطبري، ٢٩٠ ، ص ١٨٩.
كاظم الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة، طبعة بغداد، ١٩٦٧، ص ١١ وما بعدها. ياقوت الحموي، معجم البلدان مادة كوفة.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد ٣ مادة الرملة. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٩.
شغل منصب والي العراق من سنة ٦٦ حتى سنة ٩٥هـ .
تاريخ اليعقوبي ٢٩٠، ص ٣٧٩. تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٨٣. ابن قتيبة، المعارف، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٥٦.
بحشل، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧، ص ٢٢ وما بعدها.
تاريخ الطبري، ج ٩، ص ٢٤٠. اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٦ وما بعدها. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٠.
الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠. تاريخ الطبري، ج ٩، ص ٢٤٠.
اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٥ . المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩.
المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٥. ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٦.
ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج ١، ص ١١٧. اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٤٨.
ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١ وما بعدها.
ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣. مؤرخ مجهول، الحلل الموشيه، ص ١١.
محمود علي مكي، مدريد العربية، طبعة مصر، وزارة الثقافة، ص ٧٤.
ابن عربي، محاضرة الأبرار، ج ١، طبعة دار السعادة بالقاهرة، ١٣٢٤هـ، ص ١٤٩. المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٥٢٣.
ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج ١، ص ٢٧٦. ابن عذاري، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٣.
المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٥٦٤. ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦.
الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، طبعة ليدن، ١٨٦٤، ص ١٩٢.
زكي محمد حسن، فنون الإسلام، طبعة بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨١، ص ٤٠.
ابن عساكر، تاريخ دمشق، مجلد ٢، تحقيق صلاح الدين المنجد، ص ٢١ وما بعدها. ابن جبير، الرحلة، طبعة بيروت، ١٩٥٩، ص ٢٣٥.
عبد القادر ريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، طبعة دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٩، ص ٤٧ وما بعدها.
محمد عباس بدر، المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية، ص ١٣٣ وما بعدها.
ديمتري برامكي، تطور الهندسة المعمارية والفن في عصر الأمويين، طبعة بغداد، ١٩٥٧، ص ١٣٨.
أحمد فائز الحمصي، روائع من العمارة الإسلامية في سورية، طبعة وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٨٢، ص ١٠٢ وما بعدها.

محمود علي مكي، مدريد العربية، طبعة وزارة الثقافة بمصر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص ٥٢.
الإدريسي، نزهة المشتاق، نشر وترجمة راينهات دوزي خويه، ص ٦٨.
تقع عيون غبولة في الجنوب الغربي لمدينة الرباط على بعد تسعة عشر كيلومتراً منها وكان تسريب الماء منها إلى الرباط سنة ٥٤٥هـ.
F.W.Robins, The Story of Water Supply, Oxford, University Press, 1946, pp.116-118.